المحاضرة (3): رواد علم الاجتماع (ابن خلدون)

يعتبر ابن خلدون من المفكرين الذين سجلوا أسماءهم بين دفتي قادة الفكر العربي، وقد نال شهرة واسعة لا سيما في العصر الحديث، فلقب بالمفكر الاجتماعي والسياسي، وبالمؤرخ والفيلسوف وغيرها من الألقاب. ولقد استطاع هذا المفكر العربي المبدع أن يقدم إسهامات مهمة في مجال الفكر الإنساني. ولعل ما اشتهر به من خلال بحثه المعمق والطويل لشؤون الاجتماع الإنساني ولتاريخ الأمم والأجيال مقدمته التي شرح فيها علمه الجديد، علم العمران البشري

1- نبذة مختصرة عن حياة ابن خلدون: ولد ابن خلدون وهو أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن وكنيته أبو زيد، ولقبه ولي الدين، وشهرته ابن خلدون بتونس في رمضان عام 732هـ- 27 مايو 1332م. وقرأ القرآن الكريم وهو يافع، ودرس العربية على يد أبيه، واهتم بدراسة الحديث والفقه والعلوم العقلية والنحو وكتب الأدب ودواوين الشعر. وقد جال ابن خلدون أقطار عديدة من الدول العربية والإسلامية في وقته: المغرب، تونس، الجزائر، والأندلس.

2-عصر ابن خلدون: عاش ابن خلدون في القرن الثامن للهجرة الرابع عشر للميلاد، وكان هذا العصر من العصور التي شهدت فيها مجتمعات العالم العديد من التحولات والتقلبات تعبر عن مرحلة انتقالية من حياة البشرية. **فعلى مستوى العالم العربي مرت بلدانه بمرحلة وصل فيها التراجع والانحطاط ذروته** في وقت كان فيه الغرب يسعى إلى بناء وتشييد حضارة قوية ويحقق نهضته.

لقد عرف العالم الإسلامي خلال هذا القرن كوارث عديد **تؤكد في مجملها أن شمس الحضارة الإسلامية بدأت في الأفول سياسيا واجتماعيا وفكريا في المشرق والمغرب.**

3-البحوث الاجتماعية قبل ابن خلدون: سلك الباحثون قبل ابن خلدون في دراستهم للظواهر طرقا مختلفة في جوهرها وطبيعتها عن الطرق التي سلكها العلماء في دراسة العلوم الطبيعية والرياضية، وهي

أ- **الطريقة الأولى:** البحوث التاريخية الخالصة التي اقتصرت على مجرد وصف الظواهر لبيان ما كانت عليه، أو ما هي عليه دون استخلاص أية نتائج من وراء الوصف، خاصة فيما يتعلق بطبيعة الظواهر والقوانين التي تخضع لها. كما فعل ابن حزم في دراسته للملل والنحل، وكما فعل الفقهاء في دراستهم للشرائع.

ب- **الطريقة الثانية:** التي سلكها الباحثون قبل ابن خلدون في دراساتهم هي الدعوة إلى المبادئ التي تقررها الظواهر الاجتماعية، وبيان محاسنها ومحاولة ترغيب الناس فيها، وحثهم على التمسك بها وتثبيتها في أنفسهم وتحذيرهم من تعدي حدودها، وسار على النهج علماء الدين والخطابة والأخلاق كابن مسكويه في كتابه "تهذيب الأخلاق"، والغزالي في كتابه: "إحياء علوم الدين".

ت- - **الطريقة الثالثة:** في حين اتجه البعض في دراستهم للظواهر الاجتماعية إلى ما ينبغي أن تكون عليه الظواهر بحسب المبادئ المثالية التي يرتضيها المجتمع كما فعل أفلاطون في كتابه: «الجمهورية"، والفارابي في كتابه: " آراء أهل المدينة الفاضلة".

أما ابن خلدون فقد هدته مشاهداته وتأملاته العميقة لشؤون الاجتماع الإنساني إلى أن الظواهر الاجتماعية لا تشذ عن بقية ظواهر الكون، **وأنها محكومة في مختلف مناحيها بقوانين طبيعية** تشبه القوانين التي تحكم ما عداها من ظواهر الكون.

4- الأسباب التي دعت ابن خلدون إلى إنشاء علم العمران: كانت هناك جملة من الأسباب التي دعت ابن خلدون إلى إنشاء علم العمران:

أ- حرصه الشديد على تخليص البحوث التاريخية من الإخبار الكاذبة.

ب- إنشاء أداة يستطيع بفضلها الباحثون في علم التاريخ التمييز بين ما يحتمل الصدق وما لا يمكن أن يكون صادقا فيما يتعلق بأخبار الظواهر الاجتماع الإنساني **(أو ما يسمى بالمنهج العلمي).**

حدد ابن خلدون ثلاثة طوائف من الأسباب التي تدعو إلى الكذب.

- ✓ **-الطائفة الأولى تتعلق** بشخصية المؤلف وميوله وأهواؤه ومدى انقياده إلى هذه الميول والأهواء.
- ✓ **-الطائفة الثانية:** فتتمثل في الجهل بالقوانين التي تخضع لها الظواهر الطبيعية.
- ✓ **الطائفة الثالثة:** وتتمثل في الجهل بالقوانين التي تخضع لها ظواهر الاجتماع الإنساني.

5- علم العمران: اتجه ابن خلدون في أبحاثه إلى نوعين من البحوث تتمثل الأولى في بحوث الاجتماع الإنساني وما يتعلق بشؤون العمران وطبائعه. أما النوع الثاني فيتمثل في بحوث التاريخ التي اقتفت البحث في تاريخ الأمم العربية والبربرية.

سمى ابن خلدون علمه بعلم العمران البشري أو علم الاجتماع الإنساني، وهو العلم الذي يطلق عليه اليوم"السوسيولوجيا". يقول بن خلدون: " وكأنّ هذا علم مستقل بنفسه، فإنّه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني، وذو مسائل وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى، وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيا كان أو عقليا".

6-الفائدة من العلم: استوحى ابن خلدون علمه الجديد من خلال مطالعته لكتب التاريخ، فكان يسعى باحثا عن الدروس والعبر من الماضي؛ لاكتشاف ما يعينه على فهم الحاضر المتثاقل بالأحداث، وبالتالي؛ فإنّ الطريقة التي سلكها المفكر في إنشاء علم العمران هي التاريخ. وبعبارة أدق، تلك العلاقة الوثيقة التي تربط بين الماضي والحاضر. وعن فائدة العلم يقول ابن خلدون:" وإن كانت مسائله في ذاتها وفي اختصاصها شريفة، لكن ثمرته تصحيح الأخبار وهي ضعيفة".

استعمل ابن خلدون مصطلح العمران ليشير به إلى مجموعة واسعة من الظواهر الاجتماعية التي تشمل المجتمع البدوي والحضري، والدول والخلافة والملك، والصنائع والمعاش والكسب ووجوهه، والعلوم واكتسابها وتعلمها. وبهذه الأمثلة التي يقدمها ابن خلدون يلاحظ أنه اهتم بتحليل الظواهر الاجتماعية ولكنه لم يعرّف هذه الظواهر أو يبين خصائصها. ويرى بعض العلماء أن ابن خلدون يقترب في فهمه لموضوع علم العمران من اميل دوركايم الذي ركز على أن المجتمع أكثر من مجموع الناس الذين يؤلفونه.

7- ابن خلدون وطريقته في البحث: لقد اعتمد ابن خلدون في بحوثه على ملاحظة ظواهر الاجتماع في مختلف الشعوب التي أتيح له الاحتكاك بها والحياة بين أهلها، وعلى تعقب هذه الظواهر في تاريخ هذه الشعوب نفسها في العصور السابقة على عصره، وتعقب أشباهها ونظائرها في تاريخ شعوب أخرى لم تتاح له الفرصة لا الاحتكاك بها ولا الحياة بين أهلها. ثم الموازنة بين هذه الظواهر جميعها. والتأمل في مختلف شؤونها للوقوف على طبائعها" وعناصرها الذاتية وصفاتها العرضية، وما تؤديه من وظائف في حياة الأفراد والجماعات، والعلاقات التي تربطها بعضها ببعض والعلاقات التي تربطها بما عداها من الظواهر الكونية، وعوامل تطورها واختلافها باختلاف الأمم والعصور، ثم الانتهاء من هذا جميعا إلى استخلاص ما تخضع له هذه الظواهر في مختلف شئونها من قوانين. وفي بحثه للظواهر الاجتماعية يجتاز مرحلتين اثنتين: تتمثل أولاهما في ملاحظات حسية وتاريخية لظواهر الاجتماع، أي تتمثل في جمع المواد الأولية لموضوع بحثه من المشاهدات ومن بطون التاريخ، وتتمثل المرحلة الثانية في عمليات عقلية يجريها على هذه المواد الأولية، وبفضلها يصل إلى الغرض الذي يقصده من هذا العلم، وهو الكشف عما يحكم الظواهر الاجتماعية من قوانين وهذا هو جوهر المنهج الذي اتبعه، وهو المنهج الذي لا يزال حتى الوقت الحاضر عمدة الباحثين في علم الاجتماع، ويمكن تقسيم منهج ابن خلدون إلى قسمين:

- **القسم الأول:** نقدي سلبي: أي التعرض إلى أخطاء الباحثين السابقين عليه متحليا بالتجرد
- **القسم الثاني:** وهو منهج وصفي تحليلي أو إيجابي وأساس هذا القسم الايجابي الملاحظة والتجربة والاستقراء

<u>أما القواعد المنهجية التي تشكل القسم الثاني فهي:</u>

- يجب الاعتماد على الملاحظة المباشرة وما تؤدي إليه التجربة.
- يجب تفسير الظواهر وتحليلها واستخدام منطق التعليل.
- -يجب الاعتماد على منطق المقارنة أو منهج البحث المقارن.
- يجب قياس الأخبار على أصول العادة وطبائع العمران، فلا يصح أن نأخذ أخبار الحوادث والأخبار كما تلقى علينا؛ بل يجب النظر إليها هل هي ممكنة الحدوث في حد ذاتها أو مستحيلة؟
- يجب دراسة تطور الظواهر والنظم العمرانية"